A study of rhetoric based on the views of Safi Al-Din Al-Hali

Asst. Lec. Ali Mahmood Habib Al-Shimari
Al-Salam University College, Iraq
ali1993mr@gmail.com
Asst. Prof. Mojtaba Emrani Pour, (PHD)
Tehran University, Iran
emranipour@ut.ac.ir
Mehran Gholamali, (PHD)
Tehran University, Iran
mehrangholamali@ut.ac.ir

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i142.3790

Abstract

Arabic rhetoric is divided into three parts: meanings, expression and novelty. In each of them, the strategies of presenting the speech according to the needs of the listener, the method of presenting the speech and how the arrangement of the speech is stated, respectively. Great scholars have given speeches and theories in this regard. In this research, we intend to discuss his views and theories about Safi al-Din Halli, one of the scholars of rhetoric, through descriptive-analytical methods by exploring the verses of Divan. Therefore, we will first introduce each of the rhetorical topics that this great scholar has referred to in his educational verses and then we explain Safiyya al-Din's views on it and make it clear that the purpose of this precious world in these verses is to provide opinions on each of the topics of Arabic rhetoric and education to the listener. Finally, we compare the views of other scholars of this science with him in each of the issues he has raised, who have usually offered concurrent theories, but it seems that Safiyuddin's scope of view in some cases, including the characteristics of the speaker, is wider. It is another rhetoric.

Keywords: Safiauddin Hali, Rhetoric, Characteristics of speech, brevity.

البلاغة من منظار صفي الدين الحلّي (٦٧٧-٧٥٢هـ)

م.م علي محمود حبيب الشمري
تدريسي في كلية السلام الجامعة

الدكتور مجتبى عمرانى پور
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران

مهران غلامعلى زاده
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران

(مُلَخَّصُ البَحث)

تنقسم البلاغة العربية إلى ثلاثة علوم: علم المعاني والبيان والبديع. يقوم علم المعاني بإيراد الأساليب المصممة وفقاً لاقتضاء الحال لدى المتلقي، ويعرف بعلم البيان إيراد المعنى الواحد بطرائق مختلفة في وضوح الدلالة على ذلك المعنى وعلم البديع يبحث عن كيفية تزيين الكلام. لقد تحدث العلماء الكبار في هذا الصدد وقدموا بعض الآراء منهم صفي الدين الحلي. تقوم هذه الدراسة إلى استكشاف وجهات النظر لصفي الدين الحلي الذي يعد عالماً في علم البلاغة عبر المنهج الوصفي – التحليلي لأبيات ديوانه. لذلك بدايةً نقدم كل موضوع من المواضيع البلاغية التي ذكرها هذا العالم الكبير في أبياته التعليمية ثمّ نقارن آراء العلماء الآخرين في هذه المواضيع. عادةً نشاهد الأراء المتشابهة ولكن يبدو أن رؤية صفي الدين الحلي في بعض الموضوعات لاسيَّما الميزات التي تختص بالمتكلم أوسع من رؤية بقية البلاغيين.

الكلمات المفتاحية: صفي الدين الحلي، البلاغة، الكلام، الإيجاز.

١- المقدمة

كان علم البلاغة المختلط بالنقد الأدبي سائداً ورائجاً بين الأمم المتحضرة منذ فترة طويلة. يعدُّ علم البلاغة واحدًا من أهمّ علوم اللغة العربية على الاطلاق، ويُعرّف على أنَّه فنُّ الخطاب، أي فنُّ التكلّم. يقول ابوهلال العسكري (ت٣٩٥هـ) العالم في علم البلاغة في مقدمة كتابه: «أنّ أحقّ العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ –بعد معرفة بالله جلَّ ثناؤُه– علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى .... وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب...» (العسكري، ١٣٧١، ٢) ويقول ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): "مدار البلاغة كلِّها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنَّه لا انتفاعَ بإيرادِ الأفكارِ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكونَ مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"، وهذا يعني انَّ البلاغة هي إيصال الكلام المطلوب بمعناه المُراد تامًّا. (أحمد

الزين، ٢٠١١، ٤٣) لما أنّ أهم دور للغة هو التواصل والبلاغة تُعنى بالتواصل الفعال، كان يقوم علماء البلاغة بإيراد والقاء النظرات في هذا الصدد. أدرج علم الإتصال من العصور القديمة حتى الوقت الحاضر عناصرَ في عملية التواصل التي تتكون من ثلاثة عناصر أصلية: المرسِل والرسالة والمتلقي، ولذا فهي في وئام تام مع البلاغة لأنه كما قيل: إنّ البلاغة تدرس ميزات الكلام والمتكلم والمتلقي. في هذا البحث سنقوم بدراسة بعض الميزات التي يعبر عنها صفي الدين الحلي في أبياته التعليمية لهذه العناصر الثلاثة واظهار وجهات نظره وسائر البلاغيين في هذا الصدد.

١-١أسئلة البحث

١- ما آراء صفي الدين الحلي في البلاغة؟

٢- ما مواضع التشابه والاختلاف بين آراء صفي الدين الحلي والآخرين؟

٢-١ ترجمة صفي الدين الحلي (٦٧٧-٧٥٢هـ)

هو عبدالعزيز بن سرايا ولد بالحلة من مدن الفرات، واتصل بأمراء الدولة الأرتقية في ماردين ثم رحل الى مصر ومدح السلطان الناصر بن قلاوون وكانت وفاته في بغداد.

لصفي الدين ديوان جمعه هو نفسه وقد طبع مراراً في دمشق وبيروت وفيه جميع أبواب الشعر المعهودة. له من المؤلفات كتاب «الأغلاطي» وهو معجم للأغلاط اللغوية، وكتاب «العاطل الحالي والمرخص الغالي» وخصصه للشعر الملحون، ويعد في أهم الكتب التي تعرض هذا الفن. وكتاب «الأوزان المستحدثة» و«الدر النفيس في أجناس التجنيس»، و«القصيدة البديعية» وهي في مدح الرسول(ص) واشتملت على ١٥١ نوعاً من البديع، وله عليها عدة شروح. وله ديوان شعر رتبه بحسب الموضوعات. وله أيضاً «القصائد الأرتقيات» التي جاء ذكرها سابقاً. وقد نظم القصائد الطويلة والمقطعات والموشحات والمخمسات والمشطرات والمواليا والقوما وغيرها. يعد شاعرنا بحق في طليعة شعراء هذا العصر. أغرم بالبديع فكان أول من نظم القصائد التي تجمع انواعه وتعرف بالبديعيات. (الفاخورى، ١٣٨٧: ٦٧٦)

٢- البلاغة وميزات عناصر التواصل من منظار صفي الدين الحلي

اللغة المنطوقة أو المكتوبة هي إحدى طرق التواصل مع الآخرين ويعتبر اللغويون التواصل مع الآخرين أهم دور للغة (يول، ١٣٨٥، ص٥) من الواضح أن موضوع الاتصال وتعريفه ليس موضوع مناقشتنا، ولكن من الضروري أن نقوم بإيراد بعض التعاريف والقضايا حول هذا العلم. يعتقد أرسطو (٣٨٤ق.م – ٣٢٢ق.م) بثلاثة عناصر في عملية التواصل فيقول: «الأنواع الخطابية ثلاثة لأنّ صنوف المستمعين ثلاثة ولأنّ العناصر المكونة لكل

خطبة ثلاثة والعناصر هى: الخطيب والموضوع والسامع والغاية في الخطابة تتعلق بعنصر الأخير أى السامع» (ارسطا طاليس، ١٣٦٩: ١٢)

كما قدم علماء البلاغة بعض التعاريف لعناصر التواصل في علم البلاغة. على سبيل المثال يصف عبدالحميد الكاتب (٧٥هـ-١٣٢هـ) البلاغة على هذا النحو: «البلاغة تقرير المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام» (القيروانى، ١٩٢٥: ١/١٥٩). ويقول أبو هلال العسكري في كتابه المعنون بكتاب "الصناعتين، الكتابة والشعر" حول البلاغة: «فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه» (العسكرى، ١٣٧١: ٦) . والسامع في قوله هو المتلقي والمعنى هو الرسالة. وأيضاً يستعمل عبدالحميد في تعريفه "التقرير والإيصال" الذي يشير إلى المتكلم أو المرسل وغرضه من "الأفهام" هو المتلقي، وفي النهاية يستعمل لفظ "الكلام" بدلاً من الرسالة.

ولو أن علماء البلاغة قدموا التعاريف المتشابهة للبلاغة لكن عبر مقارنة هذه التعاريف المذكورة نكتشف أن رأي أرسطو ولاسيَّما العناصر التواصلية التي أصبحت أساساً لنظريات الإتصال في القرن العشرين قد جذب انتباه علماء المسلمين وقد أصبح أخيرًا موضوعًا متكرراً بين علماء البلاغة. مع نظرة إجمالية على هذه الموضوعات نكتشف أنّ مسألة التأثير على المخاطب أو المتلقي تلعب دوراً رئيساً فيها وكان لعلماء البلاغة اهتمام خاص بأثر الخطاب ومدى فعاليته وتوجد العلاقة المباشرة بين أثر الخطاب وفعاليته وفصاحة الكلام والمتكلم أو المرسل، فكلما يكون كلام المتكلم فصيحاً وبليغاً تزيد فعاليته على المخاطب الذي يعتبر ركناً رئيساً في عملية التواصل وإلّا فنشاهد الكلام دون أثر أو له أثر ضعيف دون جدوى. صفي الدين الحلي هو أيضًا أحد العلماء الذين انتبهوا إلى عناصر الاتصال لأن وجود هذه الميزة يعني الفصاحة في كلام المتكلم له أثر هامٌ في إيجاد الاتصال مع المخاطب أو المتلقي ويزيد تأثير كلامه أكثر فأكثر. في الواقع عندما يكون الحديث بسيطًا ويتم إعداده جيدًا يفهمه المخاطب بشكل أفضل ويقبله أحسن وأكثر وهذا ما تعنيه علوم الاتصال وفي النهاية يعبر كل هذا عن البراعة والبصيرة الشاهقة للشيخ صفي الدين الحلي التي نشاهدها في أشعاره التعليمية. حالياً نسعى أن ندرس آراءه في البلاغة عبر أشعاره التعليمية. والموضوع الذي نشاهد كثيراً في أشعاره التعليمية هو الإيجاز القصر من قِبَل المتكلم والابتعاد عن الكلمات الغريبة والميل إلى الألفاظ المأنوسة.

٢-١ الإيجاز

يقول الإمام علي (ع) «البلاغة أن تجيب ولا تبطي وتصيبَ فلا تخطى» «أى سرعة البديهة وحسن الايجاز» (الحسيني، ١٣٨٧: ١٢٠).

ويقول الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين): «قال ابن الأعرابى: قال معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عيّاش العبدىّ: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الايجاز» (الجاحظ، ١٩٦٨، ٩٦/١) ونُقل عن ابن معتز في تعريف البلاغة: «البلاغة: البلوغ إلى المعنى، ولم يطل سفر الكلام» (الحسينى، ١٣٨٧، ص ١٢٧)

حينما ندرس آراء صفي الدين الحلي في البلاغة نكتشف بأنه كالإمام على (ع) وابن المعتز والعبدي يعتقد بأنّ الأصل والأساس في البلاغة هو إيجاز القِصَر. إذ قسّم البلاغيون الإيجاز على قسمين: أحدهما الإيجاز بالحذف والآخر هو إيجاز القِصَر. وقالوا من فوائده «معرفة ما يستفاد من الكلام ضمناً بدلالة القرائن. ويعد من أهم مباحث علم المعاني مبحث الإيجاز بأنواعه ...حتى قال عبد القاهر الجرجاني فى باب القول فى الحذف: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن» (الجرجاني، ١٤٢٢، ٢٢٢) وقيل في تعريف الإيجاز: الإيجاز نوعان إيجاز القصر، ويسمّى إيجاز البلاغة، وذلك بأن يتضمن الكلام المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف؛ وإيجاز الحذف، وذلك بأن يحذف شيء من العبارة، لايخل بالفهم، مع وجود قرينة (السكاكي، ١٤٢٠، ٨٣٢ والتفتازاني، لاتا، ٢٨٧ واليازجي، ١٨٨٣، ١٨)

يصف صفي الدين الحلي البلاغة بقوله:

«لَيسَ البَلاغَةُ مَعنىً فيهِ الكَلامُ يَطولُ
بَل صَوغُ مَعنىً كَثيرٍ يَحويهِ لَفظٌ قَليلُ
فَالفَضلُ في حُسنِ لَفظٍ يَقِلُّ فيهِ الفُضولُ
يَظُنَّهُ النَاسُ سَهلاً وَما إِلَيهِ سَبيلُ
وَالعَيُّ مَعنىً قَصيرٌ يَحويهِ لَفظٌ طَويلُ»

(الحلي، لاتا، ٦٦٦)

إنّ الأبيات المذكورة تبيّن لنا أن أساس البلاغة لدى صفي الدين الحلي هو الإيجاز والتحذر عن الإطناب، وهو يعتقد بأنّ على المتكلم أو الكاتب أن يحذر من استعمال المحسنات البلاغية الإضافية التي يملّ بسببها المتلقي لذا يجب عليه أن ينتهي كلامه سريعاً مع إلقاء المضمون والمفهوم بشكل أحسن وأكمل. هذه الميزة تتمكن أن تضمن تأثير الكلام من قِبَل المتكلم أو الكاتب على فكر ورأي المتلقي أو المخاطب. لأن في هذه الحالة يتأثر عقل المخاطب بكلام المتكلم أكثر فأكثر. ولكن عندما يشعر المخاطب بالتعب والملالة بواسطة الإطناب فلن يكون ذهنه مستعداً لاستلام المفاهيم أو غرض المتكلم فكلامه لا فائدة فيه ولايؤثر في المخاطب كما يقول في هذا المجال الإمام على (ع): «آفة الكلام الإطالة» (الآمدي، ١٤١٠، ٢٨٠/١).

في الواقع، يعد التحدث بالإيجاز والاختصار للمتحدث ميزة إيجابية يؤدي إلى تكوين شخصيته في ذهن المخاطب. لذلك عندما يحتاج المرسِل أو المتكلم إلى استخدام عبارات طويلة للتعبير عن غرضه فإنه يعتبر خللًا من قِبل المتلقي ويكون سبب ضعف قدرته الخطابية. وبالعكس، التحدث بالإيجاز مع إيراد المضمون والمفهوم بشكل أحسن وأكمل يؤدي إلى وجود رأي إيجابي للمخاطب تجاه المتكلم أو المرسل وكل ذلك يؤثر على عملية تأثير كلام المتكلم. إنّ صفي الدين الحلّي ينتبه إلى هذه الميزة انتباهاً كثيراً بشكل يرى البلاغة هي إيجاز القِصَر.

٢-٢ الاجتناب عن الكلمات الغريبة والميل والإتجاه إلى الكلمات المتعارفة

الموضوع الآخر الذي نجده في أشعار صفي الدين الحلي هو تحذيره من غرابة الكلمة وفي هذا المجال نقوم بدراسةٍ مفصلةٍ.

هذا الموضوع الذي يشار إليه باسم فصاحة الكلام والمتكلم، يعتبر أحد الموضوعات الأساسية في البلاغة وتحدث عنه العديد من العلماء. وتوجد في كتب اللغة تعريفات مختلفة لكلمة "الفصاحة" كما يقول:

يقول الراغب الإصفهاني: «الفصح خلوص الشيء مما يشوبه» (راغب الإصفهاني، ١٤٣٠: فصح) يقول الفخر الرازي: «اعلم أنّ الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد. وأصلها من قولهم أفصح اللبن، إذ أخذت عنه الرغوة» (الرازى، لاتا، ٩٦/١) يقول ابن منظور: الفصاحة بمعنى البيان والإيضاح (ابن منظور، ١٣٨٠، مادة فصح)

يقول علماء البلاغة في تعريف الفصاحة:

«الفصاحة تنقسم إلى قسمين: أحدهما يرجع إلى المعنى وهو بمعنى خلوص الكلام من التعقيد والآخر يرجع إلى اللفظ ويشير بأن الكلمة تكون من أصل عربي» (السكاكي، ١٤٢٠، ٥٢٦) .«الفصاحة يعني تكون الكلمة موافقة للقوانيين المستمدة من كلام العرب» (الدسوقي، ١٢٣٢، ٤٦)

اهتم البلاغيون بفصاحة الكلمة والمتكلم ويعتبرونها شرطاً أساسياً لخطاب المتكلم وعلم البلاغة وأيضاً قاموا بتقديم التضامن والعلاقة الوطيدة بين الفصاحة والعناصر التواصلية عبر التعريفات التي قدموها للبلاغة. يعتقد الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين): «ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى الكلام، عذب ينابيع اللسان، اذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى» (الجاحظ، ١٩٦٨: ٧٠) يمكن استنتاج عناصر الخطاب المذكورة من عبارة الجاحظ فنتمكن أن نقول إنّ "الكاتب" هو "المرسل" و"سهم الصواب" في رأيه هي "الرسالة"، وفي النهاية غرضه من "غرض المعنى" هو "المتلقي"، وهذا السهم لا يصيب الغرض إلّا بالكلام الذي يزيّن بميزة الفصاحة.

ويقول القزويني في كتابه (تلخيص المفتاح): «والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ... وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ» (الخطيب القزوينى، ١٣٦٣: ٢١-١٩) يتفق صفي الدين الحلّي مع أصحاب الرأي حول الفصاحة، فالفصاحة تعني العدول عن الألفاظ الغريبة والميل إلى الألفاظ المتعارفة كما ينشد أبياتاً حول هذا الموضوع ويذكر كيفية كراهة السمع وكراهة المتلقي عن استماع الألفاظ الغريبة:

«إنّما الحَيزَبونُ والدّردَبيسُ، والطّخَا والنَّقاخُ والعَطلَبيسُ
والسّبَنتَي،والحَقصُ، والهِيقُ، والهجرسُ، والطرقسانُ، والعسطوسُ
لغةٌ تنفرُ المسامعُ منها حينَ تُروى وتَشمَئزّ النّفوسُ
وقبيحٌ أن يذكرَ النافرُ الوحـ ـشي منها ويتركَ المأنوسُ
أينَ قَولي هذا كثيبٌ قَديمٌ ومَقالي عَقَنقَلٌ قَدمُوسُ»

(الحلي، لاتا: ٦٢٤)

ويشير إلى الانتهازية كسمة أخرى للكلام الفصيح والبليغ:

«لم نجدْ شادياً يغني قفا نبـ ـكِ على العُودِ، إذ تُدارُ الكؤوسُ
لا ولا مَن شَدا أقيمُوا بَني أُمـ ـمي، إذا ما أُديرَتِ الخَندَريسُ»

(المصدر نفسه: ٦٢٤)

استخدام المفردات في مكانها ومعناها الخاص هو نقطة أخرى جذبت انتباه صفي الدين الحلّي:

«أتُراني إن قُلتُ للحِبّ يا عِلْـ ـقُ درَى أنهُ العزيزُ النفيسُ
أو إذا قلتُ للقِيامِ جُلوسٌ علمَ النّاسُ ما يكونُ الجلوسُ»

(المصدر نفسه: ٦٢)

في نهاية القصيدة، يعبر الشاعر عن العلاقة بين القلب والمفردات ويعتبر تأثيرها كمغناطيس الذي يجذب القلوب:

«إنّما هذِهِ القُلوبُ حَديدٌ، ولَذيذُ الألفاظِ مِغناطيسُ»

(المصدر نفسه: ٦٢٥)

إنّ الاجتناب والابتعاد عن الكلمات الغريبة والميل إلى الألفاظ المتعارفة هو أحد الأسباب التي تجعل الكلام فصيحاً والمتلقي مستعداً لقبول الغرض، وفي النهاية تجعل المتكلم أو المرسل ذا قدرة خطابية. وهذا ما يشير إليه صفي الدين الحلي في أشعاره التعليمية. ولكن هذا الموضوع ليس الميزة الوحيدة التي تجعل الكلام فصيحاً بل توجد أسباب أخرى لم يغفل عنها هذا العالم الكبير منها: تجنّب من المزاح المخل والكثير واستعمال المفردات التي تقلل من متانة وكرامة الكلام

٢-٣ متانة الكلام

هذا الموضوع كموضوع السابق يتعلق بكيفية الكلام. كلما كان الكلام خالياً من الكلمات السخيفة والحشو كلما كان كريماً فيقترب من الفصاحة أكثر فأكثر. عندما ينطق المتحدث بكلام فإنه يعبر عن شخصيته وبنسبة كيفية كلامه يحترمه التلقي. كلما كان الكلام الذي يخرج من اللسان خالياً عن الحشو والسخافة كلما كان الاحترام أكبر وأكثر فاعلية. بالطبع ، موضوع شخصية المتحدث وحالته الاجتماعية في الجمهور هو موضوع سنناقشه بالتفصيل في قسم ميزات المتحدث فنكتفي في هذا المجال بهذا الحد. إنّ أصحاب الرأى وعلماء البلاغة يرون السخافة والابتذال نقصاً للفصاحة كما يعتقد الخطيب القزويني: «مما يخلّ بفصاحة الكلام ابتذاله وسخافة ألفاظه» (الخطيب القزوينى، ١٣٦٣: ٢٧)

بينما ننظر إلى قصائد صفي الدين الحلي نجد رؤيته الواسعة بالنسبة الكيفية للكلام والمتكلم وميزاتهما. فعلى رأي صفي الدين الحلي هناك ميزة أخرى إذ يجب أن يكون الكلام مزيّناً بها ليكون أكثر بلاغة وهي تجنب استعمال الكلمات التي تقلل من متانته.

«أرى فُحشَ الكَلامِ يَروعُ قَلبي وَلَيسَ تَروعُهُ البيضُ الحِدادُ
كَحَلقِ البَكرِ يَجرَحُهُ زُلالٌ وَلا يُدمي مَشافِرَهُ القَتادُ»
(الحلى، لاتا: ٦٥٣)

«تَوَقَّ مِنَ الناسِ فُحشَ الكَلامِ فَكُلٌّ يَنالُ جَنى غَرسِهِ
فَمَن جَرَّبَ الذَمَّ في عِرضِهِ كَمَن جَرَّبَ السُمَّ في نَفسِهِ»
(المصدر نفسه: ٦٥٢)

يشير صفي الدين الحلي إلى جوانب مختلفة تقلل من متانة الكلام. ففي أبياته الأولى يعتقد صفي الدين الحلي أن الكلمات القبيحة والكريهة تؤلم البشر أكثر من سيف حاد. إنّ المتكلم يجب عليه أن يكون ذا أسلوب متين ورصين جذباً للمتلقي وإيجاد علاقة متبادلة ومتواصلة معه في الكتابة أم في الخطاب. فالمتلقي يقبل كلام المتكلم عندما يطمئن من حفظ شخصيته من قبل المتحدث وإلا فلا ويمكن تقديم هذا التأكيد بواسطة المتحدث بإستخدام الكلمات التي يعتبرها المتلقي حسنةً وفي حدّ ذاته. حتى تتم عملية الاتصال وأخيرا إقناع هذه العلاقة بشكل صحيح. كيفية الكتابة وكيفية قول أو كيفية تسليم الغرض والمضمون إذا تم الالتزام به تضيف تأثير الكلام. ما يلفت النظر في هذه الأبيات هو نوع التعبير من قِبَل صفي الدين الحلي إذ توضح التشبيهات المستعملة في هذه الأبيات تأثير الكلام من منظاره . الموضوع الآخر الذي نشاهد في أبياته التعليمية هو التركيز على الاعتدال والاقتصاد. إنه يعتقد أن كل شيء يجب أن يستعمل بقدر الضرورة حينما يقول:

«أقلِلِ المَزحَ فى الكلامِ احترازًا فبإفراطِه الدِّماءُ تُراقُ
قِلَّةُ السّمِّ لا تَضُرُّ وقَد يَقـ ـتُلُ مَعَ فَرطِ أكلِه الدرياقُ»
(المصدر نفسه: ٦٥٢)

في هذين البيتين يتحدث عن الفكاهة واستخدام الكلمات الفكاهية وفي هذا المجال يعتقد بالاعتدال والاقتصاد. ربما يريد المتكلم أن يشوّق ويرغب المتكلم كي يستمع لكلامه ويقبله ولكنه بسبب إفراطه في الفكاهة يعكس النتيجة فيفترض أن المتكلم يقلل من شأنه وشخصيته ويحاول الإذلال والتحقير وفي النهاية يصبح الاتصال هروبًا.

في الواقع يجب على المتكلم أن يتصف كلامه بالميزات الإيجابية المختلفة بحسب إحتياجات المتلقي وهذا ما يسمى رعاية مقتضي الحال في البلاغة. وهو الاعتبار المناسب الذي يستدعي اشتمال الكلام على سمات وخصائص أسلوبيَّة تناسب المقام أو الحال الذي يُلقى فيه فواحدة من أهم القضايا التي يمكن أن تؤثر في قبول العمل الأدبي، مثل الشعر، هو رعاية مقتضي الحال. إن المقصود بمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب المستدعي للسمات والخصائص التي يأتي عليها أسلوب المتكلم ليوافق حديثه المقام أو الحال الذي أنشأ له كلامه، وقد دُعّم هذا التوضيح – لمفهوم مقتضى الحال – بنصوص ذكرها بعض العلماء والنقاد والدارسين في اللغة والأدب والبلاغة سواء منهم المحدثين أو القدماء. (الخطيب القزويني، ١٣٦٣، ٣٣) وإن كان الكلام وفقاً لمقتضى الحال يتمكن من التأثير على المخاطب وإلّا فلا.

تشير هذه الأبيات أيضًا إلى اهتمام صفي الدين الحلّي بتفاصيل الكلام الفعال. إنه لايرفض ملاحة الكلام تماماً بل يذكر المتكلم أن يكون مقتصداً في إستخدامها. كما يمكن أن يكون الترياق مميتًا، فإن الكثير من الهراء والفكاهة في الكلام يمكن أن يجعله فاترًا وسخيفاً ويزعج المتلقي. لقد درسنا حتى الآن ميزات الكلام في الأبيات التعليمية لصفي الدين الحلي ووصفنا وجهات نظره وآراء الخبراء وعلماء البلاغة حول كل من هذه الميزات. سنقوم حالياً بفحص خصائص المتحدث أو المتكلم في أبياته التعليمية وأخيراً نبيّن آراءه وآراء الخبراء وعلماء البلاغة في هذا الموضوع.

٢-٤ مكانة المتكلم الاقتصادية والاجتماعية

قد يعتقد البعض أن هذا الموضوع لا يمكن أن يكون ذا صلة بالبلاغة ولكن كما قلنا سابقاً، هناك ثلاثة عناصر رئيسة متضمنة في كل اتصال وهي "المرسل" و"الرسالة" و"المتلقي"، وبما أن أحد الأهداف الرئيسة للخطابة هو تعليم كيفية ايجاد العلاقة واستمرارها فإن كل الموضوعات التي تؤثر على هذه العناصر الثلاثة تدخل في علم البلاغة ويمكن دراستها. في علم البلاغة عندما يتكلم في ميزات الكلام فالغرض هو إقامة العلاقة المتبادلة بين المتكلم والمتلقي لذلك نستنتج أنّ مكانة المتكلم الاقتصادية أو الاجتماعية لها أثر خاص في عملية التواصل لأنّ المتلقي ينتبه على المصدر الذي تنبعث عنه الرسالة فإذا كان المصدر ذات قيمة إجتماعية ويكون محبوباً عند الجمهور فيقبله المتلقي بشكل أحسن وإلّا

فلا. في عملية الاتصال أيضاً يسلك المتلقي سلوكاً مختلفاً لدى كل مرسلٍ، يعني إذا كان المرسل ذا قيمة اجتماعية عالية فالمتلقي يطمئن به ويتكئ عليه وعلى آرائه وكل هذا يؤثر على قبول الغرض والهدف من قبل المتلقي. يعتقد الخبراء في مجال التواصل أيضًا: ينطوي التواصل "من يقول؟ وماذا يقول؟" (سورين ، ١٣٨٤: ٦٨).

في هذا المجال يعتبر المرسل عنصراً هاماً في عملية التواصل، نتمكن أن نعتبركل هذا تحذيراً للمتحدث للتركيز على شخصيته أمام المخاطب أو المتلقي، يشير إلى هذا المهم الشاعر الإيراني أبوالفتح البستي في قصيدته النونية:

«سَحْبانُ مِن غَيرِ مالٍ باقِلٌ حَصِرٌ وباقِلٌ في ثَراءِ المالِ سَحْبانُ»

(البستى، ١٤٢٧: ٣٧)

لم يكتفِ صفي الدين الحلي بتبيين بعض الميزات للكلام فحسب بل يتجه نحو المتكلم ويذكر بعض الميزات التي يجب على المتكلم أن يتصف بها:

«إِنَّ الفَقيـــــــــرَ وَإِن نَمَتـــــــــــــ ـــــــــهُ مَكـــــــارِمٌ وَفَضـــــــائِلُ
لا يُســــــــــــتَعانُ بِــــــــــهِ وَلا يُعبــــــا بِمـــــا هُـــــوَ قائِـــــلُ
لَـــــو كـــــانَ سَـــــحبانَ الـــــبَلا غَـــــــةِ أَنكَرَتـــــــهُ وائِـــــلُ
أَو كـــــانَ قَسّـــــاً فـــــي الفَصـــــا حَـــــــةِ قيـــــلَ هَـــــذا باقِـــــلُ»

(الحلي، لاتا: ٦٦١)

وأيضاً يقول:

«وَإذا فاتَـــكَ الغِنـــى نَكَـــصَ العَـــز مُ وَكَـــــلَّ اللِســـــانُ عِنـــــدَ الكَـــــلامِ
مـــــا لِســـــانُ الفَقيـــــرِ إلاّ قَصـــــيرٌ عَجَبـــــــاً إن أَطـــــــاقَ رَدَّ السَـــــــلامِ»

(المصدر نفسه: ٦٦٣)

حينما يتكلم صفي الدين الحلي على ميزات المتكلم يشير إلى مكانته الاجتماعية والاقتصادية ويراها عنصراً هاماً في عملية التواصل والتأثير والتأثر بها، وهو يعتقد أن المتلقي ينتبه على هذا البعد عند التعامل مع المتكلم، فربما لم يجذب المتلقي الشخص الحكيم الذي ليس لديه الوضع الاقتصادي الجيد، والرسالة التي يتم نقلها لا تؤثر بشكل كاف على المتلقي، فإذا كان المرسل صالحًا أو غير صالح فسيؤثر ذلك على قبول الرسالة من قبل المتلقي فالرسالة حتى إذا كانت صالحة ولكن أرسِلَت من مرسل غير صالح فلن يقبلها. (دكر، ١٣٧٩: ٣٤-٢٥) . عندما ندرس أبيات صفي الدين الحلي التعليمية نشاهد اهتمامه بهذه الميزة وهذا يدلّ على رؤيته الوسيعة وعنايته الحميدة بالعناصر الثلاثة في عملية التواصل.

٥-٢ الاهتمام بمضمون ومفهوم الرسالة (التفكر قبل التكلم)

في عملية التواصل يعتبر مفهوم الرسالة جزءاً أساسياً لها، والمراد من الرسالة كل نص ومفهوم يتبادل بين المرسل أو المتكلم والمتلقي. الميزة الأخرى التي يجب على المتكلم أن

يهتم بها هو الفهم ودرك الرسالة ودراستها قبل إرسالها إلى المتلقي. ربما حدث ذلك عدة مرات لأي شخص أزعج الجمهور عن غير قصد لعدم الاهتمام بما يقول، فبهذا السبب تحدث الشخصية السلبية في ذهن المتلقي. لاحظ علماء علم الاتصال "الرسالة" التي تعد واحدة من العناصر الرئيسة في عملية الاتصال وفحصوا جوانبها المختلفة. على سبيل المثال في نموذج الاتصال يقول لاسويل: «يجب أن نسأل في عملية الاتصال: من يقول؟ ماذا يقول؟ في أي قناة يقول؟ لمن يقول؟ وما هو تأثير قوله؟» (فيسك، ١٣٨٦: ١١و١٠)

حينما ندرس آراء أبيهلال العسكري حول البلاغة نكتشف بأن معرفة موقف وظروف التحدث وتقديم الكلمات المناسبة لهذه المواقف هي أساس الخطابة لدى هذا العالم البلاغي. (العسكرى، ١٣٧١، ٢٧) . ويقول عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) : «مما يعبّر به عن فضل بعض القائلين على بعض، هو من حيث النطق والتكلم واخبارهم السامعين عن الاغراض والمقاصد ...» (الجرجانى، ٢٠٠٤م: ٤٣) من هذا البيان وغيره من التصريحات التي يذكرها عبد القاهر نجد أنه يحثّ المتكلم على الاهتمام بكيفية القول ومفهومه. من خلال فحص أشعار صفي الدين نجد أنه أضافَ للاهتمام بمكانة المتكلم الاقتصادية والاجتماعية ميزة أخرى وهو انتباه المتحدث إلى محتوى الرسالة.

كما يقول:

«إسمَع مُخاطَبَةَ الجَليسِ وَلا تَكُن عَجِلاً بِنُطقِكَ قَبلَما تَتَفَهَّمُ
لَم تُعطَ مَعَ أُذُنَيكَ نُطقاً واحِداً إِلّا لِتَسمَعَ ضِعفَ ما تَتَكَلَّمُ»
(الحلي، لاتا: ٦٥٥)

يدعو المتحدث إلى العناية بمحتوى الرسالة التي يرسلها إلى المتلقي ويطلب منه التحلي بالصبر بالنسبة للكلام الذي ينطق به لمساعدته على النجاح في عملية الاتصال. إذا لم ينتبه المتحدث لما يقوله من الممكن أن يزعج المتلقي، وأيضا من الممكن أن لا يكون العيب من حيث الالرسالة ومفهومها بل لأنها لم تُرسَل في الزمان والمكان المناسبين، فليست مؤثراً بل يزعج المتلقي.

٣- نتائج البحث

أ) يستنتج من آراء صفي الدين الحلي حول البلاغة أنه قد نظر في جميع العناصر التي تؤثر على تشكيل التواصل اللفظي وإرسال الرسالة من المرسل إلى المتلقي، وذكر لكل من هذه العناصر ميزات وخصائص.

ب)دائرة الميزات والخصائص التي يذكرها صفي الدين الحلي للمتكلم هي أكثر من الميزات التي يصفها البلاغيون الآخرون، منها مكانة المتكلم الاقتصادية والاجتماعية وهذا الموضوع يشير إلى رؤيته الواسعة.

ج) يبدو أن صفي الدين في أبياته يهتم أكثر بالمتكلم/المرسل والرسالة.

د) وجهة نظره الرئيسة في البلاغة هي موضوع الإيجاز ولاسيَّما إيجاز القِصَر، حتى يعتقد بأنّ البلاغة هي الإيجاز.

المصادر والمراجع

١) آرميچل، ترنس (١٣٧٧ ش)، مردم در سازمان‌ها، ترجمة: حسين شكركن ، تهران، رشد
٢) الآمدي، عبد الواحد بن محمد (١٤١٠)، تحقيق: سيد مهدي رجائي، قم، دار الكتاب الإسلامي.
٣) ابن منظور، محمد بن مكرم،١٣٨٠هـ. ش، لسان العرب، بيروت، دارصادر
٤) أحمد الزين، محمود، ٢٠١١، مفاتيح فهم الكلام العربي، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبى
٥) ارسطا طاليس (١٣٦٩ش)، كتاب الخطابة، مصر، مكتبة الانجلو
٦) البستي، أبوالفتح (١٤٢٧)، قصيدة عنوان الحكم، تعليق عبدالفتاح أبوغدة، الطبعة الخامسة، بيروت، مكتب المطبوعات الإسلامية
٧) التفتازاني، سعدالدين،لاتا، المطول، بيروت، دارالمعارف
٨) جاحظ، أبو عثمان (١٩٦٨م)، البيان والتبيين، الطبعة الاولى، بيروت، دارالإحياء
٩) الجرجاني، عبدالقاهر(١٤٢٢)، دلائل الإعجاز، بيروت، دارالكتب العلمية
١٠) الحسني، السيد باقر(١٣٨٧ ش)، أساليب البيان في القرآن، چاپ اول، قم، بوستان كتاب
١١) الحلّي، صفي الدين، لاتا، ديوان، بيروت، دارصادر
١٢) _____ (١٤١٢ق)، شرح الكافية البديعية، الطبعة الثانية، بيروت، دار صادر
١٣) الدسوقي، محمد (١٢٣٢ق)، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، المكتبة العصرية
١٤) دكر، برت (١٣٧٩ش)، مديريت فرايند ارتباطات مؤثر، ترجمه: بهزاد رمضانى، تهران، انتشارات نشر دايره
١٥) الرازي، فخرالدين، لاتا، المستطرف، الطبعة الثانية، بيروت، دارالكتب العلمية
١٦) الراغب الاصفهاني، أبوالقاسم الحسين بن محمد (١٤٣٠)، المفردات فى غريب القرآن، تحقيق ابراهيم شمس الدين، بيروت، مؤسسة الأعلمى
١٧) السكاكي، أبو يعقوب (١٤٢٠ق)، مفتاح العلوم، بيروت، دارالكتب العلمية
١٨) سورين، ورنر جي وتانكارد، جيمز دبليو (١٣٨٤ش)، نظريه‌هاي ارتباطات، ترجمه: عليرضا دهقان، تهران، انتشارات دانشگاه تهران
١٩) العسكري، أبوهلال (١٣٧١ش)، الصناعتين، الكتابة والشعر، الطبعة الاولى، بيروت، دار الإحياء
٢٠) الفاخوري، حنا (١٣٨٧ش)، تاريخ الادب العربى، قم، ذوي القربى
٢١) فيسك، جان (١٣٨٦ش)، درآمدى بر مطالعات ارتباطى، ترجمه: مهدى غبرايى، تهران، دفتر مطالعات وتوسعه رسانه‌ها
٢٢) القزويني، محمدبن عبدالرحمن(٢٠١٠)، الايضاح في علوم البلاغه، بيروت، دارالكتب العلمية.
٢٣) _____ (١٣٦٣ش)، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، ايران، منشورات الرضي
٢٤) القيرواني، أبواسحاق (١٩٢٥م)، زهرالآداب وثمرة الالباب، بيروت، دارالجيل
٢٥) اليازجي، ناصيف (١٨٨٨م)، الطراز المعلم في علم البيان، بيروت، مطبعة قديس جاورجيوس
٢٦) يول، جورج (١٣٨٥ش)، بررسى زبان، ترجمة: على بهرامى، تهران، رهنما